



توجهت الأمور عبر بوابة القمع الأمني الوحشي والمُغرق في الدموية إلى أحد المسارات التي ذكرناها في مقالتنا السابقة - جمهورية الحرية.. من مصر لسوريا..، وهو نَزَعُ النظام إلى استعادة أبشع تراثه القمعي الذي نُفِّذ في حماة ليتقدم به إلى درعا التي شَكَّلت تاريخاً أسطورياً لها ولكل إقليم حوران قادت به مسيرة الحرية السورية التي كان تقديرها لدى المراقبين من البداية أنها مُكلفة مع طبيعة النظام الأشرس إرهابياً في تاريخ المشرق المعاصر، لكنها بالفعل اخترقت حتى الآن كل مساراته وهي صامدة أمام اقتحام الجيش الأخير لبلدات حوران.

هذا الصمود المُكْلَف لتحالف الأسد مخلوف والنخبة الخاصة في النظام يُفسِّر وحشية هجوم فجر الاثنين الخامس والعشرين من أبريل - نيسان - الماضي، فالصورة التي عرضتها الجزيرة وكل القنوات العالمية لأرتال الدبابات وهي تعبر مزارع درعا مع مشاة أمامها وخلفها دون تعرضهم لطلقة واحدة ذَكَرَت الناس بمشهد الزحف العسكري الدوري الذي عاشته مناطق فلسطين المحتلة للجيش الإسرائيلي، مع الاستذكار بأنه طوال فترة حكم النظام لم تنفذ هذه العمليات على الجبهات السورية مع الاحتلال بما فيها الجولان.

وحشية مخططة ولكن مكلفة:

ثم تتابع الأمر حين رصدت الكاميرات الشخصية قصف الدبابات منازل المدنيين، ومنع سيارات الإسعاف أو أي من الأطقم الطبية أو المتطوعين من سحب جثث العشرات من الشهداء الذين تلقى أحدهم قصف الرشاشات الثقيلة، وهو ما أدى إلى انفجار كامل لرأسه فلم تعرف هوية الجثة إلا من بطاقة الشهيد.

وقصف خزانات المياه لحوران ومصادر شاحنات الطحين لمخابزها يعطي مؤشراً على قضية الوقت الذي يُصارعه النظام رغم أنه دخل إلى بلدات حوران دون مقاومة وأثبتت للعالم في ساعات تكذيب ذاته بانتفاء أي وجود مسلح في مواجهته، خاصةً مع الشهادات التي قدمها أهالي المجندين العسكريين مصورة مع جثثهم في إفادات يقينية بأن العسكريين الذين قتلوا كانوا في إطار تصفياتنفذتها فرقة ماهر الأسد التي كانت نواتها سرايا الدفاع، أكبر تشكيل عنف دموي نفذ مجاز حماة وغيرها، وذلك لرفض أولئك العسكريين قصف أو قتل المتظاهرين.

رسالة تأكيد للغرب وتل أبيب:

ولكن لماذا يعزز النظام حصاره للمؤن والمياه على بلدات درعا رغم أنه يوجد في شوارعها، وخاصة قصفه خزانات المياه؟ الذي يتضح أن النظام قلق للغاية من أي فترة زمنية تحتاجها هذه المجازرة فتتمدد قبل أن يصل إلى نقطة الصفر الشاملة، وهي تصفية الانتفاضة عبر القمع الدموي من خلال سحق شامل لأي حراك مدني في إقليم حوران، منطلق الانتفاضة السورية

ولذلك فإن النظام يصارع البرنامج الزمني للصمود بحيث يُنفذ برنامجه قبل أي قدرة لاستعادة الانتفاضة برنامجه الاحتجاجي، وانطلاقاً مدن القطر السوري والتي بدأت بالفعل ليلة تنفيذ المجازرة في حمص وفي درعا وغيرهما وتزحف لأكثر من منطقة، وهو ما يخيف النظام، خاصةً أن النظام ومن خلال سحبه فرقاً عسكرياً من المواجهة مع إسرائيل عبر تفاهم مؤكّد لا يمكن أن يُنفذ دون تفاهم بين الطرفين، فلذلك هو حريص وقلق أمام تل أبيب والمجتمع الغربي على أن تصفيّة الانتفاضة ستتم بأقصى فترة زمنية، ليقدم نفسه من جديد كفورة إقليمية ضمنت استقرار الحدود والرقم الصعب المطمئن للغرب بتركيبته القائمة في دمشق.

الجمعة العظيمة أحبطت النظام:

من المهم للغاية أن نستحضر مشهد الجمعة العظيمة الذي سبق قرار اجتياح درعاً وأثرَ كثيراً ولا يزال في معنويات النظام، فالجمعة العظيمة كانت عظيمة في كل المسارات التي عزّزت وحدة الشعب واصطفافه بكل فئاته وخاصة العلاقة الإسلامية المسيحية، واحتلال كل نواحي القطر بهتافات الانتفاضة والوحدة والحرية.

في حين دقت أجراس الكنائس المسيحية مع أصوات المآذن، وخاصةً أن أحد الشهداء كان من أتباع الديانة المسيحية التي شارك شبابها بحضور نوعي في الجمعة العظيمة، فكان مشهد الشهيد المسيحي⁽¹⁾ أغنية موحدة مع مجزرة إزرع وباقى شهداء مدن القطر شكّلت سخرية من قصة الإمارة السلفية المزعومة، ولوحة مفجعة للنظام وهو يقابل هذه الحركة الشبابية المعزولة إلا من المبادئ، وكانت حصيلة قاتلة للنظام و برنامجه الدعائي المزور.. ولعل خسارة النظام معركة التشوّه مع توثيق عناصر الشبيحة برعاية الأمن العسكري والمخابراتي لهم حفّزته لسلح المجزرة الذي ستكون تكلفته عالية عليه.

المحور الإعلامي الخطير:

قبيل بدء الهجوم على درعاً كرس النظام دورة جديدة من إعادة ترتيب أوراقه الإعلامية، وحضر ممثلوه مؤتمراً في بيروت تدعمه إيران لمحاولة الإسناد الإعلامي للنظام بعد تصاعد التعاطف الإعلامي العربي والعالمي مع انتفاضة سوريا، وفشل عمليات التشوّه التي تبنّاها إعلام النظام ومحوره الإيراني بكل فروعه.

ومبادرة النظام لهذا المحور لأنّه من أهم وسائل التعميم على فترة المجازر ومبرراتها فيما بعد، لكن كل المؤشرات تعطي دلالة على أنّ النظام وحلفاءه الإيرانيين يخسرون هذه المعركة، وهنا وقفة مهمة للغاية لمسار دعم الانتفاضة السورية ودعم مسيرة الحرية والخلاص، فتصاعد الحشد الإعلامي وتواصله مع شهود العيان عامل حيوي للغاية لإنهاك النظام وخسارته لمرحلة المجازر والدماء المحروقة وتصعيد التكالفة عليه لتكون بناء انطلاقاً جديداً لمرحلة سقوطه لمصلحة جمهورية الحرية السورية وعمقها العربي.

ولذلك؛ فإن هذا التضامن يجب أن يستمر ويتصاعد كما هو حاصل في الإعلام الجديد والتّقليدي وعلى كل المستويات؛ أفراداً وجماعات حقوقية وإعلامية وفكرية، وقد رصدنا تأثيره البالغ في المرحلة السابقة.

قرار الانتفاضة والضريبة الصعبة:

تبعدنا مسار قرار الانتفاضة بعد مجازر الجمعة العظيمة ومجازر اجتياح درعاً، ووضح أن الانتفاضة ورغم حقّها المشروع في الدفاع عن المدنيين بكل الوسائل فإنّها متمسكة بسلامتها ومواصلة ذات الطريق، وقد بدا القرار موحداً في كل مدن القطر، وهذا يعني بوضوح ثقة في رؤية القيادة الميدانية وائلاتها، وبلا شك أنّهم قد احتسبوا لتکاليف هذا القرار، وهو ما يجب التأكيد عليه بأن الأيام القادمة ستتحمل مشاهد دموية أشدّ مما رأيناها لطبيعة النظام الإرهابي ووحشية مشاعره فضلاً عن وسائله.

غير أنّ مما يجزم به أن ضريبة الصمود في هذه المرحلة نتيجتها كارثية وانقلابية على النظام، كيف ذلك؟

إن بدء امتصاص مشهد المذابح خاصةً مع الحصار، وببدء تفاعل مدن القطر وتصاعده يسبب تصدع واضطراب في البناء العسكري الذي شهد بالفعل حملة تمرد صغيرة حالياً وستكبر وبالذات لأن التشكيل العسكري يحمل تنوعاً وإن كان يعتمد على النخبة الفئوية، فصمود درعاً وتحرك مدن القطر، وتحريك البناء المجتمعي المدني الإنساني ليضغط في كل الاتجاهات، أمر مرّجح للغاية ومتوقع، رغم أن سوداوية ذكرى مذبحة حماة محيطة بالذاكرة الوطنية والعربية، والنظام سعى لها بالفعل من خلال قصف منارة المسجد العمري في درعاً.

لكن التأمل الهدائى الذي يجب أن ينفصل في قراره الإستراتيجي عن الانهيار العاطفى يتوجه إلى اختلاف الوضع على الأرض وفي العالم والمحيط العربى، وخاصة في شبكة قيادة الميدان التي أظهرت قدرة فائقة في تطوير اتصالاتها وتوزيع مهامها وحركتها بين مدن القطر، ولذلك فإن المقاومة المدنية للنظام ستكون مكلفة كلما استمر الصمود وتتنوع الميدان القطرى وأُسند إنسانياً عربياً وعالمياً.

محاور الإسناد للانتفاضة:

وواضح أنَّ النظام لا يزال يتلقى دعماً من أركان من النظام الرسمي في الخليج، ومن ضغطه على المحيط وخاصة قرار الأردن تخفيض شبكة التغطية لأبراجها استجابة لضغط دمشق، غير أنَّ المسار الشعبي مسؤولية ملقة على الحركة الإسلامية في الأردن وكل الفعاليات القومية والمدنية لإسناد أهالي درعاً، مع أنَّ حركة التضامن بين العشائر إنسانياً في الجهتين لن تقف حتى تتحرك التشكيلات السياسية كطبيعة لعنصر الحمية الاجتماعية للمنطقة.

وهذه المسئولية تشمل كل الأقطار العربية وحركتها المدني في توجهات عدّة؛ كمظاهرات التضامن التي جرت في مصر أو الضغط السياسي أو الحقوقى، الذي لن يستطيع المحور الإيرانى مواجهته، وخاصةً أنَّ هذا المحور يحارب الشعب السوري مع ما تعنيه هذه الحقيقة من مصادمة شعورية عنيفة للتضامن العربي الحقوقى.

وكانَ قلنا في سلسلة مقالاتنا عن حرب غزة، إنَّ المحل السياسي مهما بلغ به الوصف والاستقصاء فإننا في المشرق الإسلامي نؤمن بتدخل القدر خارج حساباتنا، وإنْ قُدّاساً معظماً لا ينقطع يقدمه شهداء سوريا في لوحه وحده عظيمة وعزيمة مذهلة لهي محل تنزيل تلك الأقدار التي تبارك انتفاضة حقِّ لشعبٍ أراد الحياة وأراد له الطغاة الموت.. وقد حسم التاريخ أنَّ إرادة الحياة هي المنتصرة.

(1) لفظ الشهيد من الألفاظ الشرعية التي يترتب عليها أحكام وفضائل، ولا تطلق إلا على من كان مسلماً (نور سوريا).

المصدر: الجزيرة نت

المصادر: